من سير الخالدين

حياة المازني *

للأستاذ محمد محمود حمدان

(قل بين الصبيان من إتفق له ما اتفق لى من التجارب) « المازنى »

— ١ —

عهد الطفولة

لم يعش المازنى طفولته ، أو هو جازها مسرعاً ، بأسرع مما يجوزها الأطفال فى مثل سنه . وكأنمـا كانت طفولته ، فى قصرها واقتضابها ، أشبه بالحلم الجميل بددته صحوة مفاجئة وروعه نذير غير منتظر . فقد بكرت عليه الحياة بأحزانها وآلامهـا ، وحملته فى ذلك العمر الغض تبعاتها التى تؤخرها عن غـيره عادة إلى ما بعد مرحلة الشبيبة والنضج

قضى أبوه وهو بعد طفل فى التاسعة . فأرادت أمه أن يكون عليه معتمدها بعد أبيه — وكان أكبر ابنيها وإن لم يكن أكبر إخوته — وصارت تعامله كأنه رب الأسرة وسيد البيت ، وأخذت توطنه على احترام النفس واحتمال العبء ومواجهة الحياة . وقد وسمها ذلك فقد كانت رزاناً حصيفة عاقلة ، « صـارمة الجد ، حادة قاطعة كالسيف ، غالبة كالقدر » أو كما أوجز هووصفها حين قال عنها إنها كانت « رجلا » . ووسع الفتى الناشئ يومذاك أن يفهم عن أمه .. ويوم سمعها تقول له فى شئ من الصرامة المتنصبة يخالطها فرط الحنو :

« إسمع يا إبراهيم ! إنك لم تجاوز العاشرة ، ولـكنى أحب لك أن تعد نفسـك من الآن ، رجلا . . فتسلك سلوك الرجال لا الأطفال »

فى ذلك اليوم ، أو فى تلك اللحظة منه ، قطع الطفولة كلها وثبا

* * *

كان مولد المازنى بالقاهرة (١٨٩٠) فى أحد الأحياء الوطنية التى ظلت ، إلى عهد قريب ، محتفظة بطابعها القديم . وفى القاهرة درج المازنى ثم شب ثم جاوز الشباب إلى الرجولة فالـكهولة . ولعل هذا سر تعصبه لها وإيثاره إياها . ولقد عدها بلدته وإن لم تكن بلدة آبائه وأجداده الذين كانوا يـتوطنون بلدة « كوم مازن» من أعمال تلا بمديرية المنوفية

ويذكر المازنى أن ولادته كانت فى دار لزوج عمته ، وإن كانت مشاعاً لمن شاء أن يتخذها سكنا من ذوى قرابته . وقد خصصت بعض « المناظر » — وهى الغرف الواسـعة — التى تقع على جانبى الفناء من تلك الدار ، مكتباً يـستقبل فيه أبوه موكليه من أصحاب الدعاوى والأقضية ، وكان أزهرى الثقافة فاشتغل زمنا بتدريس اللغة العربية بالمدرسة الخديوية ، ثم هجر التدريس واحترف المحاماة إلى آخر أيامه . وكان على الحالين مبسوط الرزق موفور الدخل ، ولـكنه كان كذلك متخرق اليد بالنفقة والعطاء ، مسرافاً فى تحقيق رغائبه وتلبية أهوائه ، ولعله لهذا السبب كان مزواجا يكثر من البناء بالتركيات على الخصوص . وكانت طبيعة عمله فى المحاماة تقتضيه أن يلم بالقسطنطينية بين حين وحين ، فكان كلما سافر إليها عاد منها بزوجة جديدة ، لا يلبث أن يعود بها أدراجه إلى بلدها فيسـرحها بإحسان ويبنى بسـواها . على أنه كان ، فيما عدا ذلك ، حليما طويل البـال قليل الـكلام ساكن الطائر . ولعله استفاد مزية الأناة والحلم من كثرة ماراض نفسه على احـتمال ما كان يتعرض له ، من الجفوة والعنتة ، من أبيه الشيخ أو من زوجته الشابة المصرية أم أولاده ، كلما استجد عليها إحدى تركياته الحسان

وكان ، كما هو المعهود فى أصحاب هذا الطبع ، قليل الاستقرار فهو لا ينفك ينتقل بأهله من دار إلى دار . وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع المازنى الطفل أن يحتفظ فى ذاكرته بالصورة الماثلة على تلك الدور . وأبقى ما بقى منها منظر الفناء الرحيب الذى كان صفة مشتركة بينها ، والذى كان على هيئة الصحن تقعى فى وسطه أحيانا شجرة جميز عتيقة عظيمة كثيفة الغصون ، وربما قامت

(*) من كتاب عن « المازنى الأديب الساخر » تحت الطبع

فى موضعها نافورة ماء تروى الحديقة المترامية الأطراف من حولها

وقد قضى المازنى سنى الطفولة الباكرة فى بيت من بيوت المماليك — وكانت تعرف ببيوت « الغز » — فى درب الجماميز، ويصفه المازنى فيقول « كان البيت عجيب الطراز ، له بوابة ضخمة تصلح أن تكون لقلعة ، ومع ذلك لا تغلق فى ليل أو نهار ، ثم مدخل طويل ضيق على جانبيه الغرف وهى أبداً موصدة الأبواب والمرء لا يستطيع فى النهار أن يبصر كفه من شدة الظلمة ، وكنا نضع مصباحاً ولكنه لم يكن يضيء شيئا ، بل كان كل ماله من النفع هو أن يرينا شدة السواد ويزيده وقما فى النفوس »

وكان الصبيان من لداته وأترابه يقضون أيامهم فى اللعب البرىء ، فيجتمعون فى فناء إحدى الدور ، أو يخرجون إلى الطريق — أو (الحارة) كما يسمونها — يصرفون نهارهم كله فيما يتعلقون به من فنون اللهو . وكان المازنى الطفل أشوقهم إلى اللعب وأرغبهم فيه وأجزلهم حظا منه ، وقد تميز من بينهم بحب للدعابة وميل إلى الفكاهة . وكانت فيه دفعة وجرأة تغريانه بالتقحم والمغامرة وطلب الشجار أو (جر الشكل) كما يقول ، وإن كان مع ذلك ضعيفا نحيفا ، ولقد اعتاض من ضعفه سعة الحيلة والدهاء ، فصارت له بفضله منزلة بين لداته الصبيان

على أنه لم يكد يهنأ بهذه الرغبة الطبيعية فيه أو يأخذ بحظه منها ؛ فقد كان يدفع دونها ويحلأ عنها ، فلا يهم باللعب مرة إلا زجره أهله ونهوه عنه كأنما كان يقترف منكراً ويقارب معصية ، حتى تخيل إليه — وهو يدير عينه فى تلك الأيام — أن وظيفة الآباء والأمهات (كانت صرف الأبناء عن النظر والتفكير ، وإلزامهم الجمود ونهيهم عن كل حركة جسيمة أو عقلية)

ولا غرابة بعد ذلك أن تضيق نفس الطفل بالبيت وبالحياة فيه ، وأن يراه أشبه بالجحيم . فهو لا يكاد يقبل إلى الدنيا ، غريبا عنها مأخوذا بجدتها مشوقاً إلى معرفتها ؛ يحفزه إلى ذلك نفسه المتفتحة وطبعه التوثب ؛ حتى يطالبه الكبار بأن يكون له ، هو الطفل الغرير ، « عقل الكبار واتزانهم وفهمهم »

وربما بدا عصيا على التصديق أن تكون هذه نظرة الطفل إلى البيت فى ذلك العهد . ولكن الأمر لا يتعاصى على التحقيق ، إذا عرفنا أن المازنى نشأ فى بيت من بيوت الورع والتقوى ، فأبوه وجده من علماء الأزهر ، وقد طرقت مسامع الطفل الناشئ آنذاك عبارات الثناء على جده من أفواه تلاميذه وعرف منهم منزلة مرعية للشيخ . وكذلك كان هذا البيت ببنيانه فضلا عن سكانه ؛ فكان يقوم فى فنائه مصلى أو مسجد صغير « عامر أبداً بالمصلين ليلا ونهارا » ، ويختلف إليه المريدون والأتباع يعقدون حلقات الذكر التى كانت تمس قلب الطفل الصغير وتملك عليه نفسه ، فينغم إليهم ، ويأتى بمثل ما يأتونه من صوت وحركة فكانت نشأته أقرب إلى النشأة الدينية التى يغلب عليها المحافظة والتوقر ومجافاة ما عساه يكون مظنة شك أو مدعاة ريبة ، مع التشدد فى التقاليد المرعية والعرف السائد ، والذهاب فى ذلك كله إلى حد المغالاة والإسراف . ومن طرائف ما لقيه الطفل فى هذه النشأة ، أنه درج يسمع عن شخصين فى البيت ولا يراهما أبدا ؛ « وإن كان ذكرهما على لسانى أبى وأمى ؛ وهما « الست » و « الأفندى » ، فأبى يقول للخادمة مثلا ، قولى كذا أو كذا « للست » ، ويتحدث فى أوقات شتى ولا سيما حين يكون معه رجال من أقربائنا عن هذه « الست » . وأمى لا تفتأ تقول ، « الأفندى » قال أو « الأفندى » أتى أو « الأفندى » خرج . فأعجب أين هما ؟ ولماذا لا أراهما ؟ وأصعد إلى السطح باحثا عنهما فلا أجدهما ، وأدخل كل غرفة فلا أهتدى إلى أثرهما ، وأنزل إلى فناء الدار فلا ألتقى بهما . أين يناما يا ترى ؟ ماذا يأكلان ؟ ألا يظهران أبدا ؟ » ... وظل يجهل شخصيهما حتى قدر لهذا اللغز أن يحل على يد جده الذى قال له « لقد أخطأوا معك يا بنى ، وكان حقهم أن يدلوك »

ونحسبنا فى غنى عن القول بأن هذين الشخصين لم يكونا أحداً غير أمه وأبيه ، يذكر كل منهما الآخر ، ويتحدث عنهما الآخرون ، فلا يعدى فى الإشارة إليهما عن تينك الصفتين ، وكانت النتيجة هى ذلك الازدواج الساذج فى وهم الطفل الصغير

* * *

وعلى هذه الحال ، دفعوا بالطفل ، وهو لم يعد الخامسة ، إلى كتاب من كتاتيب القاهرة لذلك العهد ، على مقربة من الدار . . ويقول المازني « ويصبح الصباح فأحمل إلى الكتاب حملا ، وهنالك توضع قدماى فى « الفلقة » ويهوى عليها « سيدنا » — فقيه الكتاب — بالجريدة أو « المقرعة » أو بكل ذلك إلى مساعده « العريف » ، وبهذا يبدأ النهار .. »

على أن عهده بالكتاب لم يطل . فقد أصرت أمه على المدرسة وألحقته — عن طريق إحدى معارفها — بمدرسة للبنات . ولم يلبث أن هرب منها — أو من قسوة ناظرها — إلى مدرسة أخرى كانت تقع وقتذاك فى شارع تحت الربع — أو فى درب سعادة — وعلم أبوه بذلك فنقله إلى مدرسة « القرشوالى » فى شارع محمد على ، على مقربة من القلعة . وبقى بها هذه المرة حتى أدى الامتحان فى آخر العام ، ومع ذلك فقد أبى الناظر أن ينقله إلى فرقة أعلى لصغر سنه ، ولعله بقى بهذه المدرسة عاماً آخر ، استقر بعده فى المدرسة القريبة

ويقول المازنى « كنت أعود عصر كل يوم إلى البيت ، فأرمى كتبى وكراساتى وأخرج إلى الشارع لألعب مع أقرانى ، فأزجر عن اللعب ، فأصعد وأطل على اللاعبين من الشرفة ، وبى حسرة ولهفة . وأسمعهم يصفوننى بالعقل والهدوء ، فألعن العقل وأذم الهدوء »

وقد كان فى حياة أبيه لا يعدم الوسيلة إلى اللعب والاحتيال له بما يدخل فى وسعه ؛ فقد كانت على أبيه جراءة لا يجدها على سواه . فلما مات أبوه وهو يشرف على التاسعة أرادت أمه أن تصرفه عن اللعب وأن تنأى به عنه ، وألقت إليه فيما يشبه الإيحاء أن يعد نفسه — قبل الأوان — رب الأسرة ورجلها وواحدها ، وأعدت من ناحيتها للأمر عدته ، فكان إذا انتهى العام الدراسى وحل الصيف ، بعثت بابنها إلى كتاب فى الأزهر ليحفظ القرآن فلا يجد الطفل للعبه من الوقت إلا الهين اليسير

ولقد كان المازنى خليقاً أن يستوفى حظ طفولته من رغد العيش وخلو البال وعدم الاشتغال بأمر نفسه فضلا عن أمور غيره ، لولا أن الأقدار كانت تهيئ له أمرا ، فكتبت عليه أن يحمل فى تلك السن المتقدمة أعباء الرجال المسئولين ، بما أوحى إليه اليتم من ضرورة الاعتماد على النفس والكدح فى سبيل ما ينتظره منه أهله فى المستقبل . نعم ، لم يكن الطفل ملتزماً مطالب العيش لمن خلفهم أبوه بعده ، وإنما كان عليه أن يعرف أن عهد الطفولة ، أو عهد اللعب ، قد مضى ، وأن يقسر نفسه على غير ما تهيأ له طاقتها فى سنه . وعندما فرغت البقية الباقية من مال أبيه ، وقد كفل ذلك سرف أخيه الأكبر ؛ كان عليه أن يوطن نفسه على الفقر وأن يستعد له .. ولقد عرف المازنى الفقر فى ذلك العهد من حياته ، وخبره عن كثب ، وامتحن به ، حتى وصفه بأنه أستاذه ، ولكنه كان يلقى على دروسه كما تهوى العصا على أم الرأس ! »

محمد محمود حمدان

دفاع عن البلاغة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

كتاب يعرض قضية البلاغة العربية أجمل معرض ويدافع عنها أبلغ دفاع فيذكر أسباب التنكر للبلاغة ، والعلاقة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة ... الخ

من فصوله المبتكرة : الذوق ، والأسلوب ، والمذهب الكتابى المعاصر وزعماؤه وأتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزية ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك ... الخ

يقع فى ١٩٤ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشاً

عدا أجرة البريد

كرامة الأخيار

للأستاذ محمد منصور خضر

لله در هؤلاء العلماء الأخيار الذين أكرموا العلم فأكرمهم الله وجعل لهم منزلة تتصاغر دونها منزلة الملوك ، وفروا إلى الله فحفظوا حدوده ولم يرضوا بالظلم لأن الراضي بالظلم كالظالم في الإثم — وهذا أمر قل من يتنبه إليه في هذا الزمان — فلا بد من إظهار الغضب والسخط على الظالم حتى يشهد له بذلك الخلق فيكون ذلك حجة له يوم القيامة وهو مالم نسمع به من العلماء في عصرنا . وهاك أيها القارئ بعض أخبار العلماء الذين نصحوا لله ورسوله (فحفظهم وأعلى ذكرهم) :

كان الإمام مالك رضي الله عنه يقول : لما أرسل إلى أبو جعفر المنصور دخلت عليه فرأيت النطع بين يديه والسيوف مسلولة وهو يعاتب ابن طاووس على أمور ثم قال له : ناولني الدواة فأبى ؛ فقال لهمامنعك ؟ قال خشيت أن أكون شريكا لك فيما تكتب. قال : فضممت ثيابي مخافة أن يصيبني دمه ثم قال له : اذهب إلى حال سبيلك . فلم أزل أعرف ذلك لابن طاووس !

هذا وقد طلب أبو جعفر المنصور أيضا صحبة ابن أبي ذئب فقال له بشرط أن تقبل نصحي. فقال له أبو جعفر نعم فصحبه . فقال له أبو جعفر يوما : ماتقول في ؟ فقال له : لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية.. فتغير وجه أبي جعفر فولى عن ابن أبي ذئب ولم يطق صحبته

ومن ذلك أن هشام بن عبد الملك كان بمكة وطلب الاجتماع بطاووس اليماني فلم يجبه طاووس إلى ذلك. فعمل عليه الحيلة حتى اجتمع به. فلما دخل عليه طاووس لم يسلم عليه بسلام الخلفاء، وإنما قال: السلام عليك ياهشام ! كيف حالك ؟ وخلع نعليه بحاشية البساط وجلس بجانبه. فغضب هشام لذلك حتى هم بقتله. فقال له الوزير أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله عز وجل . فقال هشام ما الذي حملك على ماصنعت؟ فقال وماذا صنعت؟ فقال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تجلس بين يدي ولم تقبل يدي ولم تقل السلام عليك يا أمير المؤمنين كما يقول غيرك، وسميتني باسمي ولم تكنني. فقال طاووس : أما ماخلعت من خلع نعلي بجانب بساطك فإني أفعل ذلك كل يوم خمس مرات بين يدي الله في بيته فلا يعاقبني ولا يغضب علي . وأما عدم تقبيلي يدك فإني سمعت علي بن أبي طالب ينهى عن تقبيل يد الملوك إلا من عدل، وأنت لم يصح عندي عدلك. وأما عدم قولي لك يا أمير المؤمنين حين سلمت عليك فليس كل المسلمين راضين بإمرتك عليهم فخشيت أن أقع في الكذب . وأما أني لم أكنك فإن الله سبحانه وتعالى قد كنى أبا لهب لكونه عدوه ، ونادى أصفياءه بأسمائهم المجردة لكونهم أحباءه ، فقال يا داود يا يحيى ياعيسى. وأما جلوسي بجانبك فإنما فعلته اختبارا لعقلك فإني سمعت علي بن أبي طالب يقول يختبر عقل الأمير بجلوس آحاد الناس بجانبه فإن غضب فهو متكبر من أهل النار . فأخذت هشاما الرعدة وخرج طاووس من عنده بغير استئذان فلم يعد إليه :

ويقال إن عبد الملك بن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سمعان فقال مهلا ياأمير المؤمنين؛ أقض لصاحبي هذا بحقه ثم اخطب. فقال وما ذاك ؟ فقال إن الناس قالوا لهما يخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذي كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم . فطال بينه وبينه الكلام فقال له الرجل : ياأمير المؤمنين إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون ؛ أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه ! وإن قلت خذوا الحكمة حيث وجدتموها واقبلوا العظة ممن سمعتموها فملام قلدنا كم أزمة أمورنا وحكمنا كم في دمائنا وأموالنا ! أو ماتعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللذات وأحكم بوجوه العظات؟ فإن كانت الأمانة قد عجزت عن إقامة العدل فيها تخلوا سبيلها وأطلقوا عقالها يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم في البلاد وشتتم شملهم بكل واد . أما والله لئن بقيت في يدكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمحل حقوق الله تعالى وحقوق العباد ! فقال له وكيف ذلك ؟ فقال لأن من كلكم في حقه زجر ومن سكت عن حقه قهر! فلا قوله مسموع، ولا ظلمه مرفوع ولا من جار عليه مردوع، وبينك وبين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال حيث ملكك هناك خامل وعزك زائل وناصرك خاذل